الاشكالية النسوية الصريحة فقائمة في شخصيتي: «خضرة» و «رفيف» اللتين لا تمثلان شخصيتين ضروريتين روائيا، بل فرضتهما الكاتبة لحمل القول الايديولوجي المباشر الذي يتوافق مع الميلودراما التي تفارق في دلالتها ومعناها البناء الفني لاية رواية.

تستجلي شخصية «خضرة» في القراءة الروائية كشخصية زائدة، والزائد في الرواية يعيد نفسه من جديد «صفحات زائدة». وعندما يتطور في الرواية ما هو زائد فيها، فإن هذا التطور يضعف الرواية ويوصلها إلى حدود «الاهتزاز»، أو يتطور في مستوى خارج عنها أي يدفعها في أجزاء منها إلى ما يشبه «التفكك». لهذا فإن تطور شخصيّة «خضرة» الزائد روائيا يتم في شكل خارج عن المستوى الروائي هو : «الميلودراما»، التي تقوم عادة على ايديولوجية أخلاقية صرفة. إن هذه الشخصية في علاقتها بالمعنى العام للرواية هي شخصية خارجية – ذهنية لا تغني الفعل الروائي بل تحرفه عن مساره الفعلي. أو لنقل إنها الشخصية التي تُسقط عليها سحر خليفة شعاراتها الايديولوجية ونزوعاتها «النسوية». ونجد هذه الشخصية نظيراً آخر لها في شخصية «رفيف»، التي يتطور فيها من جديد «زائد الرواية» أي ضعفها، والتي تقود الرواية إلى صفحات طويلة تكسر في أكثر من مكان وحدة الرواية، ويتراءى لنا هذا الكسر في الصفحات الناقلة عن علاقة «رفيف» بالمجلة، وبـ «عادل» وبـ «دورها الصحفي الثوري» في الحياة الاجتماعية.

والآن، أين وصلت اجابات الرواية على أسئلتها، أو على سؤال الواقع الفلسطيني الذي تشجّر في جملة أسئلة؟ وسؤال الرواية هو علاقة الفلسطيني بشرطه التاريخي المعاصر. وقد عثر السؤال على جوابه في شخصيات «نوار»، و«أسامة»، و «سعدية»، و «عادل». عن السؤال والواقع كتبت سحر وأجادت أحيانا، وأعطت صفحات مشرقة. وإذا كان الجواب الروائي قد وجد تحققه في سمات «سعدية» وحركتها، فإنه جاء ناقصا أو شبه ناقص في الشخصيات الاخرى. لقد استطاعت الكاتبة أن ترسم بإتقان وصدق كبيرين قدر «سعدية»، هذه المرأة التي فقدت زوجها، وناضلت من أجل حماية ذاتها وإعالة أطفالها في وسط اجتماعي لا يقول باستقلال المرأة بل يجعل من هذا الاستقلال تهمة ووشاية. وفي سطور سحر تصبح «سعدية» اشارة لتناقضات الحياة والوعي، وتستمر كعلاقة اجتماعية تحتضن في مسارها مسار الكل والفرد والواقع، فهي تتحرك امرأة وإنسانا عاملاً وفلسطينية مقاتلة، تعمل وتتحدى وتحلم وتبحث عن «قصر فوق الأرض» يحيله الاحتلال إلى قصر في الهواء. تبدأ «سعدية» كيانا ساذجا وكسيرا، تعيش عالمها الأسير والضيق، وترتجف أمام تعقّد الحياة، وفي علاقتها القسرية بالحياة والخارج، تتحول إلى علاقة جديدة، وإلى انسان جديد، يعمل ويبني نفسه ويحلم، إلى أن ترتطم بما يصطدم به الكل يوميا، وإلى أن تصل إلى إدراك أن الأحلام لا تتحقق في أزمنة الاحتلال، وعندها تفقد الحلم وتعيد صياغته، وتمضي علاقة فاعلة واعية في مسار شعب يحلم ويقاوم ويجمع باستمرار نثار أحلامه. رسمت سحر هذه الشخصية بكرم ودفء وإتقان، ووصلت بها إلى حدود ما يسميه لوكاش بـ «النمط» الذي يجمع في حركته ما هو فردي وما هو جماعي، وإلى حدود ما يسميه البعض بـ «البطل الإيجابي»، و «سعدية» هنا ليست علاقة ايديولوجية أو شخصية مبشرة، إنها إنسان عادي تعيد